أمثلة من الترجمة

Meral Kureyshi

Elefanten im Garten

Limmat Verlag, Zürich 2015

ISBN 978-3-85791-784-4

صفحات **5-16**

Meral Kureyshi

فيلةٌ في الحديقة

ترجمة: أسامة الشحماني

© 2015 Limmat Verlag, Zürich / Arabic Translation: © 2016 Litrix.de

نعشكَ يُواريه الثرى. أنتَ أردَتَ أنْ تُدفنَ في بريزرن[i]. منذ شهرٍ وأنا ألفُّ شعري صباحَ كلِّ جمعةٍ بحجابٍ أبيض لأقرأ لك سورة "ياسين"، وأصلي لك صلاة الميّت.

من نافذة الطابق الثامن أرى، كيف تتركُ آنّه المنزل. أعرفُ أنَّها تضعُ بينَ شفتيها سيجارة مارلبورو. وفي حقيبتها، التي لاشكَّ في كونها تكبرني عمرًا، تدسُّ علبة، على أقلِّ تقدير، من السجائر ذات اللون الأحمر والأبيض. ما أنْ تدركُ قدمُها عتبة المنزل من الخارج حتى تشعلُ سيجارتها بالولاعة المُدفّأة في قبضة يدها مسبقًا. تسحبُ نفسَ الدخان وتغمضُ عينيها قليلًا، كما لو أنّها في لحظة عمى مؤقّت. يتضخّمُ صدرُها. وحين تنفثُ بالنفس إلى الخارج، تختفي برهة في سحابة من الدخان. آنّه لا تُفضّل التدخين وحيدة، ما أحبتْ ذلك أبدًا، وها هي الآن تقفُ هنا كما لو أنّها مدفأةٌ، لا حاجة لأحدٍ بها في الصيف.

حاول بابا مرارًا إقناعها بالإقلاع عن التدخين، لكنها كانت تنفث الدخان في وجهه قائلة: لا غنى لقدح من النبيذ الجيد عن سيجارة، وحين كفت عن شرب الكحول، صارت تقول: لا غنى لفنجان من القهوة الجيدة عن سيجارة.

الحقيبة السوداء مصنوعة من جلدِ الخنزير، جلد الخنزير رخيص. وهي كبيرةٌ ولها حزامٌ طويلٌ، لحملها على الكتف المُنجّدة بالثياب شتاء. مرة وبينما أنا أبحثُ فيها عن ملقط، تكشَّفَ لي أنّها تحوي جيبًا داخليًا صغيرًا.

سحّابُ الحقيبة يبدو كالجرح، إنَّها جُرحٌ خُيِّطَ، وما سُحبتْ خيوطهُ إلى بعضها البعض قط. سنًّا تلو الآخر أفتح سحّاب الحقيبة فأجدُ مشطًا خشبيًا، كان خاصتك.

تخرجُ آنّه العصا القابلة للطي من الحقيبة، أنظرُ إليها كيف تُحرّكُها من أقصى الشمال إلى اليمين. وصلتْ بالبريد اليوم عصوان جديدتان، العصا القديمة متآكلة من مقدّمتها.

الشقة الجديدة كانت ستعجبك. لم تتم تغطية أرضيّاتها بالسجاد، ومن شرفةِ الطابق الثامن يمكنُ للمرء أنْ يرى أفقًا واسعًا فوق الأسطح وفي الشقق الأخرى. بومبليتس[ii] هو الحي السكني الذي أحببته على الدوام. إنّهُ مكانُك المفضّل للتسوق، والعديد من أصدقائك عاشوا فيه، وفي مسجده، الواقع في الطابق السفلي من إحدى البنايات العالية، كنتَ تلتقي مع مجموعة كبيرة من الرجال الألبان لتؤدي صلاة العيد.

خمس سنوات كاملة استمرَّ بحثنا عن شقةٍ. وبعد أن وافاك الأجل عثرنا على واحدةٍ في أطراف مدينة بيرن، في عمارة عالية، تسكن فيها سبعٌ وعشرون عائلة أجنبية وثلاث عائلات سويسرية. "أنت تتحدثين الألمانية بشكل جيد،" قالت لي صاحبة البيت بصوت عالٍ جدًا ونبرة واضحة.

"نحن نعيش في سويسرا منذُ أنْ كان عمري عشر سنوات." أجبتها. بعدَ أنْ نزلنا في الشقة الجديدة عزمنا على أنْ نزيِّنَ جدرانها بالصور. على أنَّ الحيطان لا تزال بيضاء.

تذهب آنّه بمفردها لمدرسة المكفوفين، وللتسوّق من المحل التركي أليما، وكذا تستقلُ القطار باتجاه مدينة بيل حيثُ تزورُ صديقتها أمينة. فرانس يأتي مرَّة كلّ شهر كي يدربها على السير في طرق جديدةٍ، سرعان ما تفتخر بالمشي فيها، إذ تتقدمنا لقيادة رتل العائلة ونحن نسير خلفها تباعًا. "عائلة البط" تصيحُ ماريا من الطابق الخامس. إنّها تعرفُ منْ تشاجرَ مع منْ في البناية، منْ أكملَ غسل ملابسهِ وأهملَ تنظيف الغسالة، ومنْ تغاضى عن إزالة ما يتبقى من الشعر والصوف عن النشافة.

أصبحَ عُمرُ أخي اثنين وعشرين عامًا، وهو يصغرني بسنتين. هو يذهب أحيانًا إلى المدرسة. إنَّهُ يريدُ أنْ يصبحَ مصممًا، ينامُ نصفَ النهار وفي غرفتهِ تعشعشُ القذارة والظلام. أختي، التي أنا لها أمٌّ أكثرُ من والدتها، والدتي، والدتنا، هي أصغرُ منّي بعشر سنوات. وستحرصُ عليها آنّه وكأنها قطعة زينة سريعة العطب. أمّا نحنُ فلمْ تعاملنا بالمثل أبدًا. لطالما كانتْ تضربُ أخي على مؤخرته بنبات القرَّاص الحارق، عندما كان طفلًا يتبوّل في فراشهِ.

أفتّشُ عن أشياء أخرى داخل الجرح، فأقعُ على ورقة ملفوفة. إنّها الرسالة ذاتها، التي أرسلتها لنا من إسطنبول في صيف العام 1991. خمس عشرة سنة مرّت عليها حتى الآن. وفيها كتبتَ أنّك تريدُ السفر إلى سويسرا، وترجو منّا أن نتبعك، وأن نثق بك. أنت تكتبُ بأحرف كبيرةٍ.

الرسالة المطوية بشكلٍ مربعٍ، بان على طيّاتها تغيّرُ لون الورق، شحوبهُ قليلًا، الخطُ واضحٌ ونظيف. "خط أطباء" أسمعُك تقول. لم تكن طبيبًا، أنت كنتَ تنظّف عيادات الأطباء، وإذا ما ذهبنّا في زيارة ما، ترتدي المعطف الأبيض، المعلّق وراء الباب، فوق ملابسك، فيما نجلسُ نحنُ على السرير، الذي تقومُ بتغطيته بورقٍ أبيض، نسحبُ نفسًا عميقًا، شهيق، زفير كيما تتمكن أنت من فحصنا.

عندما وصلتْ الرسالة، جلستْ آنّه على الأريكة في شقتنا الصغيرة في حي كوريلا في بريزرن، وأخذت تبكي. أخي ينامُ على وسادته تحت الطاولة. وأنا كنت أقف بجانب الباب المنزل المفتوح. الريح حملتْ ورقًا أصفر إلى داخل الغرفة. كانت رياحًا دافئة، شعرتُ كما لو أنَّها تدغدغني من تحت ذراعي. حين وقفت آنّه، ومرّت من أمامي لتصعد فوق العتبة، دار رأسي ناحيتها ثمَّ رجعَ. عينُ بنيَّة تطلُّ تحت الطاولة. سمعتُ صوتَ آنّه كرجعٍ قادمٍ من بعيد:

"بابا لا يأتي الى المنزل."

حين مرَّرتُ لساني فوق شفتيَّ، تذوقتُ طعم الملح.

"الناسُ مالحون،" قالَ لي مرة جدي دَدَه.

"أين بابا؟"

"أنا لا أعلم، لا أعلم، لا أعلم!" وضعتْ آنّه رأسَها بين يديها.

حينئذ قرأتْ لنا آنّه الرسالة، وكتبت لبابا رسالة تجيبهُ.

اليوم تنسابُ كلماتُها من بين أصابعنا، وتبصرُ عيونها من خلال كلماتنا.

آنّه تمشي كما لو أنّها ترى. وحين توقّفتْ فجأةً، انحنيتُ لأطلّ من النافذة:

"ما الذي حدث؟ هل عليّ أن أنزل؟"

تضحكُ، تستدير تختفي في ردهة المدخل. قلقةً متعجلة اندفعتُ إلى المصعد.

"أنتِ نسيتِ أن تضعي لي المكياج."

آنّه "تصفقُ" عصاها، هكذا تصفُ عملية طي العصا البيضاء. هي لا تحتاجُ إليها في البيت. تذهبُ إلى الحمّام، تغلقُ غطاءَ مقعد المرحاض، ثمّ تجلسُ فوقه، وتغمضُ عينيها. أنشرُ بأصابعي مسحوقَ التجميل على وجهها، أحاولُ تغطية البقع الحمراء على خديَّها. بدتْ بشرتُها خشنة قليلًا.

"افتحي عينيك."

"كيف أبدو؟ لم أرَ نفسي منذ عشر سنوات خلتْ."

"أنتِ تبدين وكأنّك فاطمة جيريك."

وضعتْ الحجابَ الأبيض فوق خُصلاتها السود المجعّدة.

خجلتُ من ذلك. ليس في عائلتنا من ترتدي الحجاب، لماذا توجّب عليها أنْ تتحجّب في الوقت الراهن، وهنا في سويسرا، فكّرتُ وقلتُ لها ذلك. عليَّ أنْ أفكّر أولًا، قبلَ أنْ أتحدّث، قالتْ آنّه. هذا هو السبب الذي دفعني لأنْ أبدأ بالكتابة. بإمكاني أنْ أكتبَ ما يدورُ في ذهني، لم يقل لي أحدٌ أنَّ عليّ أنْ أفكّر قبل ذلك.

لطالما خجلتُ من كوننا لم نستطع شراء ملابس جديدة، كلٌ منّا يحلقُ للآخرَ شعرهُ، ومن أننا كنّا الوحيديين، الذي لا يملكون سيارة ولا هاتفًا، فوق كلّ ذلك يلزمُ على آنّه أيضًا أنْ ترتدي حجابًا. من قبل كنا مختلفين، من بعد صرنا الآخرين.

في المطبخ، تأخذ آنّه زجاجة كولا من الثلاجة. تزعمُ أنّ وزنَها يزدادُ من دون أنْ تأكلَ شيئًا، من النظر وحسب، تتضاعفُ الكيلوّات على وركيها.

أفكَّرُ بالصور، التي تحملها معها في حقيبتها اليدوية. لا يجبُ عليَّ أن أخاتلَها، كيما يتسنَ لي تفتيشُ حقيبَتها، أستطيعُ فعلَ ذلك أمامَ عينيّها، التي لا تراني، فيما ترشفُ هي الكولا وتضحكُ. أشعرُ بالخجل.

في الصور تظهرُ آنّه وإياك أثناءَ الرقص، تتشابكان بحميمية، على الطاولة تنتصبُ العديد من زجاجات الخمر، والماسكارا تلطّخُ ما تحت عينيّ آنّه. الشفاهُ حمراء. الأظافرُ حمراء. في إحدى الصور تقبّلان بعضكما. في صورة أخرى هي تجلسُ في حضنك وتضحكُ، ترمي برأسِها إلى الخلف، وبإحدى ذراعيها تلفُ عنقك. خدّا آنّه ينتفخان. بفتح الفم قليلًا تستطيعُ الافلاتَ من التجشؤ.

"لا تفعلي شيئًا كهذا أبدًا، لإنَّه مقرف."

اذهبُ الى غرفتي، وأصفعُ الباب ورائي. أسمعها تضحك.

باب الشقة يقفل. أنا أقف فورًا، أعود إلى النافذة. الشتاء لم يزل يخوض الحرب السنوية مع الخريف، المعركة ستكلل بالنصر قريبًا. أنتظر حتى تخرج من مدخل الصالة، تشعل سيجارتها، تبحث عن عصا المكفوفين في حقيبتها. يسار، يميّن، يسار يمين. وقبل المنعطف الأخير تنحرفُ وتنشرُ ابتسامة عريضة. أنها تعرفُ أنني ألوّحُ لها.

في بعض الأيَّام تبدو اطلالة سبتمبر بعيدة المنال، إلى درجة تجعلي بالكاد أستطيع تذكر وجهك، رائحتك، ويديك.

حتى صوتك ما انفك يتوارى ويختفي أكثر فأكثر من أذني.

أنني خائفة من أنك كلك ستختفي يومًا ما، من ذاكرتي، من فمي، ومن وجهي. آگا تقول إنني أشبهك.

وفي أيامٍ أخرى، يبدو موتك وكأنَّه حدثَ قبل بضعةِ أيام.

أنت مستلقٍ، هامدًا على السرير.

لا ابتسامة على محياك.

لا حراكَ في يديك.

لا نظرة تحت جفنيك المسدلين.

© 2016 Litrix.de

فكُّكَ مربوطٌة الى الأعلى بمنديلِ رقبتي الأحمر الورديِ.

آنّه تقفُ إلى جانب أبي.

أختي تجلس على الكرسي الذي بجواره، تمسكُ برأسها المطرقِ إلى الأسفل. شعرُها يخفي وجهها.

من حين لآخر تسقطُ دمعةٌ من أرنبة أنفها على الجزء الخلفي من يدها.

أخي يحاول أنا يظهر قويًا، يحاول ألّا ينظر في عيني، يحاولُ ألا ينبس ببنت شفة، يحاولُ أنْ يتنفَّس بانتظام. أخي يحاولُ أنْ يكون رجلًا.

كنت ارى كيف يرتعد ذقنه، وأنا أيضًا ترتجف فكي. يدُ أبي ملقاة بين يدي. لم أكن أعرف كم سيستمر ذلك. سادت العتمة في نهاية المطاف، الغرفة المضيئة في مستشفى الجزيرة. يده باتت بادرة صفراء. انحنيت وقبلتها ثلاث مرات، وأنا ارفعها إلى الجبهة ثم أعود بها بالتناوب الى الفم.

"أنا أسامحك، على كل ما كان على هذه الارض، أرجو أن تسامحني أيضًا."

كان أبي يحضر المشتريات أحيانًا من محل ومخبز نوي إنگ بالدِين. في إحدى المرات رافقته، كنت أقف وراءه عند صندوق دفع الحساب، إذ انحنى قليلًا سائلًا المسؤولة عن الدفع، وهو يعرفها بشكل سطحي، وكانت تقابلني دومًا بابتسامة، ولها رائحة فمٍ تشبه ما ينتج عن طعام القطط، سيدة متزوجة من رجل صربي، يدير المتجر، وكان يقابلنا على الدوام بمنتهى الحميمية واللطف، سألها أبي بصوت واطيء، إذا ما كان من الممكن أن تسجل ثمن البضائع على حسابه. تشكَّر منها مبتسمًا واضعًا راحة يده على قلبه، ثمَّ أنحى برأسه قليلا، معبرًا عن امتنانه. حزمت المشتريات: الخبز، الزبدة، النوتيلا، بعض الخضروات والحليب. فيما أمسك أبي حالًا بعلبة السجائر. وما أن وقفنا خارج المحل حتى أشعل أبي سيجارته على الفور. بدأ ينفخ الدخان يطلقه على شكل دوائر في السماء، بينما كنت أضحك. كنت حينها في الثانية عشرة من عمري، وفي تلك اللحظة بالذات، حيث كان أبي واقفا إلى جواري بعينيه اللامعتين، أقسمت على نفسي أني سأحصل على ما يكفي من المال، حتى لا يضطر أبي وآنّه أبدًا إلى التسوق بالدين.

أقسمت بأغلظ الأيمان، بأعلى ما أستطيع، قسمًا وجد طريقه من بين دوائر الدخان ليرتفع الى السماء عاليًا.

جئنا أنا وآنّه من مركز التسوق گلوبوس، حيث قلبنا النظر في صحون الطعام الجميلة، وتشممنا شذَا العطور، ثم مسحنا بأيدينا على بلوزة شتويّة متحسسين ملمس الصوف الكشميري. أصبح الجو باردا.

© 2016 Litrix.de

آنّه تسأل، إذا ما كنت لدي بلوزة دافئة، أقول نعم، ثمَّ تسأل عن سعره. إنّها تسأل عن سعر كلّ شيء. تقول، ليس المال إلا صنيعة من صنائع الشيطان. بالمال يستطيع المرء أنْ يشتت انتباه الانسان عن حياته، ويمكنه أن يضلَّه، أن يخدعه، أن يجعله سعيدًا، وأن يقتله.

سرنا باتجاه المدينة، تجولنا في الميادين، ودخلنا متاجر وأسواق تجارية مختلفة، لبيع الملابس والعطور والأحذيةiii. لكلّ منّا حقُ اختيار شيء واحدٍ يريده. لوائح أسعار البضائع هي أوّل ما كان يشد انتباهي لتقلّيبه. ولكني لم أردْ السير على الدوام بالموديلات بذاتها من الثياب والأحذية التي أرتدي، لقد وقع اختياري هذه المرة على سروال بنفسجي ضيّق، وتيشرت من الحجم الكبير رسمت عليه نماذج لزهور مختلفة. حين جرّبت ملابسي الجديدة لم أشأ تغييرها والعودة إلى ما كنتُ أرتدي، أردتُ أن أبقى بها. أخي اشترى حلوى وباروكة، وضعها على رأسه مباشرة. آنّه اشترت دمية شقراء لأختي، وأبي اشترى لآنّه خاتمًا، لم تمضِ عليه سوى بضعة أيام حيث فقد لونه الذهبي تاركًا بدلًا عنه لونًا أخضر على إصبع آنّه. ولكنها لم تخلعه قط. لطالما انفرط الحجر البلاستيكي عن ذلك الختام، كان أبي هو منْ يعيدُ لصقه في كلِّ مرَّة. كنَّا نذهبُ إلى المدينة نهاية كلّ شهر، حين يدخلُ في حساب أبي راتبُه الشهري. كلّنا يفهمُ أنْ ليس بالإمكان صرف الكثير من المال، ولكنّ ذلك اليوم كان جميلًا على الرغم من ذلك. كنّا نذهبُ لتناول الغذاء في ماكدونالدز، وأحيانًا ندخلُ أيضًا مطعمًا للبيتزا، لقد أحبَّ بابا البيتزا. لشدّ ما استهوتني متابعته وهو يقطّعُ البيتزا إلى قطع صغيرة، ثمّ يطوي بالشوكة هذه القطع الصغيرة من جديد قبل أن يدخلها في فمه. حاولتُ تقليده، لكنَّ نهمي الشديد جعلني أتناولُ قطع البيتزا كبيرة باليد.

كان أبي وآنّه يضحكان كثيرًا، حين تكون لدينا نقود. أما إذا شحَّ وجود المال في البيت فكانا يدخَّنان كثيرًا، فيما نلزم نحن المنزل. كانا يتشاجران، ونحن نبكي في الغرفة. لطالما تحدثنا أنا وأخي وقال أحدنا للآخر، إذا أوقد الضوء الآن فسنكون أغنياء جدًا. أو إذا نزل المطر حالًا. أو ربح بابا في اللوتو.

تمسك آنّه بيدي بقوة، إذ لا تكون بحاجة للعصى حين أرافقها. موضع يدها على ذراعي يكون دافئًا. الخاتم، ذو الحجر الأخضر، الذي أهديتهُ أنت إيّاها، تضعه في إصبع الخاتم. لم يعد يترك لونًا على إصبعي، قالت لي، فيما كنت أدوّره حول اصبعها. لآنّه يدان دافئتان على الدوام. إنّها تقول، كلُّ أولئك الذين لهم أيادٍ دافئة يحصلون على الكثير من الحب. أنتَ أحببتها كثيرًا. كلّما قلتُ، إنَّ يديَّ باردتان، تأخذُ بهما لتضعهما بين يديها الدافئتين قائلة:

"ليس صحيحًا أبدًا، لا تدعي سخافة كهذه."

تسألني عن يديها، إذا ما كانا مجعدتين. كلا، أجيبُها، لا تجاعيدَ لكِ على الاطلاق، حتى في وجهكِ.

تبتسمُ، تعرفُ أنِّي أكذبَ عليها.

لم أكن أعرفُ أنَّها ستكونُ آخر خمسَ دقائقٍ مع بابا. كان يجلسُ على الأريكة، ويستمعُ إلى الموسيقى. تحدثنا عن الشقة، التي كان ينوي الذهاب مع آنّه لمعاينتها.

في صباح اليوم التالي اشتكى من ألم في الكتف، ولذلك أرادتْ آنّه تأجيل موعد المعاينة. ولكن بابا أصرّ على مشاهدة الشقة. ركبا المرسيدس الحمراء وتوجها نحو بومبليتس. بعد خمس دقائق توقّف قلب أبي عن النبض. وعندها صرختْ آنّه بصوت عالٍ .

---

i Prizren مدينة تاريخية تقع في إقليم كوسوفو، جنوبي صربيا، وهي من المدن المعروفة بالتنوّع العرقي والثقافي، إذ يعيش فيها البوسنيون والصرب والألبان والأتراك والروما.

ii Bümpliz حي سكني يقعُ غرب مدينة برن.

iii ترد هنا جملة من أسماء المحال التجارية المعروفة في سويسرا.